E. حضارات الشرق اليوناني ـ الروماني، البيزنطي والفارسي في القرن الرابع والخامس والسادس

I. حضارة الشرق اليوناني ـ الروماني والبيزنطي

١ ـ في أيام الأمبراطورية الرومانية المتأخرة (القرن الرابع)

إن الأزمة الإقتصادية والإجتماعية التي أثارتها الفوضى السياسية والعسكرية الكبرى في القرن الثالث إستمرت مفاعيلها طوال القرن الرابع. فرغم الجهود والإصلاحات التي بذلها ديوكليسيان وقسطنطين بقيت الأمبراطورية اليونانية الرومانية، بما فيها الشرق، تعاني من آثار فقر المقاطعات وإقفار الأرياف من سكانها.

أ ـ فساد ورشوة الإدارة.

إن النظام الإداري الذي أنشأه ديوكليسيان والذي أكمله قسطنطين بجعله الأمبراطور كائناً مقدساً ومعزولاً عن رعاياه لم يؤد إلا إلى تفاقم المصائب وتضاعفها مما كانت تعاني منه الأمبراطورية. فموظفو الدولة الذين أخضعوا إلى رقابة دقيقة أدت إلى حالة تجسس حقيقية عليهم باتوا يخشون مرؤوسيهم وبالتالي شلت جميع مبادراتهم.

«وعلى الأقل لو كان كل هؤلاء المراقبين شرفاء! هذا ما جعل البلية أعظم. فالفساد والرشوة بلا ريب هما آفة كل العصور لكنهما لم يستشريا بمثل تلك القحة أو ذلك الفلتان... فكان الموظفون يقتسمون الرشوة كي لا يشي بعضهم على بعض... وقد وقفت إرادة الأباطرة الطيبة مكتوفة اليدين أمام ما يجري. فنظام ديوكليسيان رفع جداراً بينهم وبين رعاياهم. وكانت الحقيقة تضيع بين معارضة أصحاب المنافع وصمت الأصدقاء الذين يحمونهم في البلاط... وفي العام ٣٧٧ إضطرت بعثة من القيروان وعلى رأسها الخطيب الشهير سينيزيوس الإنتظار ثلاث سنوات قبل أن

يسمح لها بمقابلة الأمبراطور. . . فالإدارة السيئة كانت تثقل كاهل الشعوب لا سيما وأن الوضع الإقتصادي في الأمبراطورية كان حرجاً للغاية»[1].

ب ـ إقفار الأمبراطورية من أهلها

إن إقفار الأمبراطورية من سكانها والذي بدأ منذ القرن الأول أصبح أمراً مشهوداً في القرن الرابع. فصارت مساحات كبرى من الأرض مجدبة لإنعدام العاملين فيها. وأقام البرابرة على الأراضي غير المزروعة ليعملوا على زراعتها. «كان كل الشرق في حالة هبوط مريع ولكن الكارثة لم تصل في أي مكان إلى الحد المخيف الذي وصلت إليه في اليونان. . . فبلوتارك الذي، على أي حال، لا يحصر هذه المصيبة في بلده فقط بل يعتبرها عالمية يذكر أن اليونان في عصره كانت بالكاد تستطيع أن تجند ٣٠٠٠ هبليط (أي جندي مدجج بالسلاح) وهو العدد الذي أرسلته مدينة ميغارا وحدها إلى بلاتيه[2] العام ٤٨٠ ق.م. فالعديد من المدن الكبرى في آسيا الصغرى وسورية وقبرص لم تعد موجودة إلا بالاسم فقط. «وحدها مصر بفضل خصبها الرائع كانت تقدم صورة مغايرة عن سائر المقاطعات» (بلوخ).

ج ـ عودة الإقطاعية الأرضية

إن الحروب الأهلية والغزوات قد خلقت دماراً واسعاً وعديداً. فالمبادلات التجارية إنقطعت والأعمال علقت في الأرياف المدمرة أو المدن المحاصرة أو المنهوبة مما أفقر السكان. وقامت عصابات من المتشردين تحولوا إلى قُطّاع طرق بقطع الطرق وتهجير الأرياف من أهلها. وفي حين إستمرت المنشآت الكبرى في القسطنطينية في عملها إلا أنها توقفت في المقاطعات. وبعثت الإقطاعية من جديد بشكل أرستقراطية أرضية: فصار سكان الأرياف رعايا الفرد وليس رعايا الدولة.

د ـ الأزمة المالية

إن أزمة مالية ناجمة عن الأزمة الإقتصادية أخذت تضعضع الحياة الإجتماعية. فالبطء في إستثمار المعادن الكريمة وتصدير الذهب لشراء الكماليات أدى إلى ندرة تلك المعادن الثمينة. وكانت المصيبة في إنعدام الوسيلة التي تؤدي إلى تدارك ذلك الوضع.

1 G. Bloch, *op. cit.*, p. 249, 250, 251.

2 Bloch, *op. cit.*, p. 252, 253.

«إن الدولة الحديثة يمكنها الإقتراض من مواطنيها أو من الخارج. غير أن الدولة الرومانية لم تلجأ إلى الاستقراض، وعلى أي حال، فكيف أمكنها ذلك؟ فلم يكن لديها سوى جيران فقراء أو أعداء، وأما في الداخل فلم يكن فيها ما يشبه تلك الشركات المالية الكبرى التي عندنا اليوم عند الضرورة تهب لنجدة الخزينة العامة. . . فالركيزة الأساسية للغنى كانت الغنى العقاري ولم يكن الغنى المالي أو في الأشياء المنقولة أمامه شيئاً يذكر»[3].

هـ الحياة الفكرية

ومع هذا فالجهد المبذول في سبيل إحياء عام والذي يدعمه الحكم ويساعد عليه كان يجري في جميع المجالات مما إستتبع خلال القرن الرابع نهضة حضارية.

فجامعة القسطنطينية التي أسسها قسطنطين كانت تضم كراسي عديدة للأساتذة. والشعر اللاتيني عاد وانتعش من جديد. غير أنه لم يكن هناك في تلك الفترة الطويلة سوى مؤرخ واحد يستحق الذكر هو أميان مارسلان الأنطاكي صاحب كتاب التاريخ الروماني من نرفا إلى فالنس. وإقتصرت البلاغة أو فن الخطابة على المديح ذي الطابع الرسمي.

«إن أدب اللغة اليونانية، برغم يقظة القوميات الشرقية كالإيرانية والتدمرية وغيرهما ظل مع هذا، وبفضل ماضي حضارة اليونان التي كانت أقدم وأغنى ناهيك بشموليته وطابعه الانساني الجديد، أقل معاناة مما عاناه الغرب من جراء أزمة القرن الثالث. لذا استمرت الحركة الفكرية نشطة في الشرق ولم تنقطع ذلك الانقطاع الحاد أو تقفر ذلك الإقفار الواسع الذي شهده الأدب اللاتيني. وازدهر من جديد الشعر الملحمي مع نونوس وكينتوس الإزميريين. . . ناهيك بما أعطته الرواية من أعمال مبتكرة لا بأس بها. . .

لكن في الشرق، كان الفكر الدنيوي المعاصر يميل، كما في الماضي، إلى الخطابة والبلاغة والفلسفة. فقد كان لكل من أثينا والقسطنطينية وآسيا الصغرى وسورية ومصر مدارس البلاغة المزدهرة وكان أساتذتها يتمتعون بشهرة عالمية. . .

أما الحركة الفلسفية أخيراً، وتحت شكل الأفلاطونية الجديدة الطاغي عليها

3 Bloch, *op. cit.*, p. 254, 255.

فقد تجسدت في أعمال يوليانوس. . . وبروكلوس وهو آخر ممثل شهير لتلك المدرسة الإسكندرية الذائعة الصيت»[4]

وفي ميدان الأدب كما في مجال الفن كثيرا ما كان يطغى الشكل على الفكر الهزيل في غياب الروح والحياة. وكانت اللغة اللاتينية قد أنهت اكتساحها لبلاد الغال وأفريقيا. ولم يبق سوى الأدب المسيحي وفن المعمار العنصرين الوحيدين الحيين والأصليين في عصر الانحطاط هذا.

و ـ الأدب المسيحي

«وفي الشرق وجدت النزعة القومية نفسها التي تميل إلى الدقة ودراسة القضايا المتصلة بالوجدان في الصراعات الدينية أرضاً خصبة. ونتيجة تلك الأوضاع الخاصة إتخذ الصراع ضد الهراطقة منحى عنيفاً بنوع خاص وشهدت الأرثوذكسية مجموعة من الأبطال الغيارى يهبون للدفاع عنها. وتبدأ سلسلة هؤلاء بالقديس أثناسيوس في النصف الأول من القرن الرابع وهو مصري من الإسكندرية كان بمثابة روح الكنيسة المصرية والعدو الألد للهرطوقي آريوس. ثم يأتي القديس غريغوريوس النزينزي (٣٢٨ ـ ٣٨٩) وهو آسيوي من الكبادوك. . . فالقديس باسيليوس (٣٢٩ ـ ٣٧٩) وهو أسقف قيصرية. . . ثم أخوه القديس غريغوريوس النيساوي. وأخيراً أشهر آباء الكنيسة الشرقية أو، شيشرون الشرق، وهو القديس يوحنا فم الذهب. . . أسقف القسطنطينية. . . وكان للتاريخ أخيراً مع أوزابيوس القيصري ومن جاء بعده دور مهم في سياق الأعمال النشطة التي تناولت هذا الأدب المسيحي الخاص في الدفاع المنبري وفن الجدل والمناظرة»[5].

ز ـ فن المعمار أو الهندسة المعمارية.

«إن فن المعمار في القرنين الرابع والخامس إتخذ خصوصاً ثلاثة أشكال مبتكرة كانت على صلة مباشرة بالأحداث الكبرى الثلاثة التي كانت تسود حياة العالم الروماني السياسية والإجتماعية خلال ذلك الزمن: الملكية على الطريقة الشرقية والمسيحية والدفاع القومي. وهذه الأحداث الثلاثة وجدت متنفساً لها أو تعبيراً عنها في مظهر

4 L. Homo, *La Civilisation romaine*, p. 404.

5 L. Homo, *La Civilisation romaine*, p. 415, 416.

هندسي ثلاثي هو: القصر والبازيليك والتحصين أي القصر الأمبراطوري وكنيسة القديسة صوفيا وأسوار القسطنطينية»[6].

وفي أيام الأمبراطورية المتأخرة فإن قصر سالوني الذي بناه ديوكليسيان هو خير شاهد على تلك النهضة الفنية. وأما الكنيسة المسيحية أو البازيليك (الكاتدرائية) والكنيسة ذات القبة فقد حلتا محل الكنائس أو الكاتدرائيات الرومانية الموجودة في أيام الأمبراطورية القديمة والتي بقيت مطابقة لقواعد فن المعمار اليوناني.

ح ـ الهندسة المعمارية العسكرية

«إن المدن التي فقدت إيمانها الخالد في فضيلة السلم الروماني السحرية أخذت تحيط نفسها بالأسوار المحصنة. وأخذت الهندسة المعمارية العسكرية، التي كانت من قبل تقتصر على منطقة الحدود، تنتشر في قلب العالم الروماني بأسره في إنطلاقة جديدة وقوية. ففي أوروبا وآسيا وأفريقيا رأت كل المقاطعات وإيطاليا، وحتى العواصم نفسها روما أولاً ومن ثم القسطنطينية، نفسها منجرفة في تلك الحركة العامة التي تتطلبها السلامة العامة الملحة وفق قانون صارم. ولنذكر على سبيل المثال: في الشرق خلقيدونيا ونيقوميديا ونيقيا وسيزيك ولامبساكي وطرسوس وسلوقيا وأنطاكيا،وفي مصر: الإسكندرية... وبعض تلك الأسوار، كلياً أو جزئياً تشهد في آثارها الباقية اليوم على عمل منهجي ومتمم بتؤدة»[7].

ط ـ ولادة الافكار الديمقراطية الحديثة

إن إنهيار الحضارة القديمة الذي تسببت به أزمات القرن الثالث قد عجل به خصوصاً تألق المسيحية وصعودها وهي التي أطلقت عليه رصاصة الرحمة في القرن الرابع.

«وفي العهد الذي نحن في صدده (عهد ديوكليسيان ٢٨٥ ـ ٣٠٦) فإن المسيحية كانت قد وجهت، في الميدان النظري، ضربة قاضية للتنظيم الأرستوقراطي للحضارة القديمة بإعلانها أن كل البشر هم أبناء الإله نفسه وأنهم تالياً جميعاً متساوون أمامه. وعقيدة المساواة المعنوية بين الناس كان قد أعلن عنها بعض كبار فلاسفة العهود القديمة، لكن المسيحية وحدها نجحت في إدخالها إلى الضمير العالمي

6 L. Homo, *La Civilisation romaine*, p. 417.
7 L. Homo, *La Civilisation romaine*, p. 420, 421.

بتدميرها الحكم الأرستقراطي الحقيقي من جذوره وإطلاقها للديمقراطية الحديثة. ومنذ أن تم القضاء على مبدأ عدم مساواة الناس في ضمير الشعوب أمكن الأرستوقراطية أن تستمر كتقليد إجتماعي... لكنها لم تعد شكلاً نظامياً وشبه مقدس للمجتمع المدني كما كانت قديماً»[8].

٢ ـ حضارة الشرق البيزنطي (في القرنين الخامس والسادس)

إن العالم اليوناني ـ الإيجي الدائر في فلك بيزنطية في القرن الخامس مهد لما سمي بالعالم البيزنطي. وخلال القرن السادس أفرز هذا العالم البيزنطي حضارة يونانية ـ شرقية أي يونانية ـ سورية ويونانية ـ إسكندرانية، يمثل عصر يوستينيانوس عصرها التقليدي. «إن الوثنية الآسيوية والروحانية اليونانية تداخلتا وإمتزجتا وتكيفتا تحت أشكال جديدة مع مجد المسيح ومجد الأمبراطور، الذي هو الممثل الحقيقي لله على الأرض».

«إن هذه الحضارة اليونانية ـ البيزنطية كانت تختلف كثيراً عن الحضارة اليونانية القديمة. وهي بتحررها من السيادة الرومانية إستعادت تطورها الطبيعي. وهي بلا ريب لا تمتلك الفضيلة الرومانية وليست لها شعبيتها. لكن بدا عليها بعض ملامح الهرم والشيخوخة: ففيها جمهرة من الأساتذة القدماء وهي تلتهب في صراع الأحزاب وتمقت كل ما هو جديد. كل ما لديها من فن هو الهندسة المعمارية وكل ما لديها من علم هو جمع المال وتفعيل آلية القانون»[9].

أ ـ القسطنطينية مركز فكري كبير

كان الأدب التاريخي يحتل المقام الأول في ميدان الآداب في بيزنطية القرن السادس كما في سائر عهود تاريخها. فيوستينيانوس هو الذي شجع المؤرخين وكان يرى فيهم وسيلة لتخليد مجده.

ومع التاريخ شغل اللاهوت بدوره الفكر البيزنطي حتى أن يوستينيانوس خاض شخصياً في هذا الفرع من فروع المعرفة البشرية. ولم يكن للشعر الدنيوي أية قيمة أدبية تستحق الذكر، لكن الشعر الديني ترك روائع خالدة. وأما الفلسفة وهي إبنة اليونان فيبدو أنها كانت تحتضر مع إحتضار العالم اليوناني الوثني وعلى عتبة بروز

8 Ferrero, *La ruine de la civilisation antique*, p. 121, 122.
9 G. Young, *Constantinople*, p. 50, 51.

العالم البيزنطي والمسيحي. إن القسطنطينية، وقد سبقت الإسكندرية وأنطاكيا وأثينا، أصبحت في القرن السادس المركز الفكري الكبير في ذلك العصر.

ب ـ إسهام سورية

«لكن من الملفت للنظر أنه وفي سياق تلك الحركة الفكرية المحمومة كان للشرق ولسورية بشكل خاص النصيب الأكبر من الإسهام المميز. فلم يكن القرن السادس في الحقيقة وحده يمثل ذروة الأدب السرياني بما أعطاه من كتّاب ومؤرخين وواعظين... بل كنا نجد في عداد الكتّاب اليونانيين أنفسهم كتّاباً من أصل سوري يشكلون أكثرية هؤلاء وأوسعهم شهرة... وإن أبرز القانونيين المشترعين في ذلك العصر كانوا في معظمهم أساتذة في مدرسة بيريت (بيروت) كما أن العديد من الكتّاب الكنسيين في ذلك العصر كانوا من المقاطعات السورية. وكلنا يعرف ذلك النشاط الفكري الكبير الذي كانت تشهده مدارس أنطاكيا وقدس ونصيبين المشهورة. ومارست سوريا أيضاً في ميدان الفن تأثيراً كبيراً على تطور الفن البيزنطي في القرنين الخامس والسادس»[10].

وفي تاريخ الفن اليوناني ـ الشرقي أو البيزنطي فإن سورية أدخلت الحجر عوض القرميد الذي كان يستخدمه الرومان والبيزنطيون في البناء. ففي سورية تحولت الكنيسة أو البازيليك الرومانية، من القرن الثاني حتى القرن السابع، إلى كنيسة مسيحية وظهرت الكنائس ذات القباب. فبما حل الزخرف النحتي أو النقشي على الجدار محل التطعيم بالرخام أو الفسيفساء. وقد شيدت المساجد الأولى على طراز الأبنية السورية وظل نمطها مستمراً إلى أيامنا هذه: أبنية ذات شرفات قائمة على قناطر.

ج ـ الفن البيزنطي،فن يوناني ـ شرقي ومسيحي

في ميدان الإنشاءات أبدى المهندسون المعماريون روحاً إبتكارية تجمع بين المهارة والإتقان الرائعين. فتزيين الأبنية بالزخرفة كان بديعاً والفسيفساء بهية ناهيك بالمخطوطات الجميلة والأنسجة المطرزة والعاج المنحوت والمصوغات الثمينة.

«وفي زمن يوستينيانوس كانت العاصمة تتلقف المواد المتفرقة التي تزودها بها مختلف مناطق الشرق فتمزجها وتحولها الى أشكالها النهائية مضفية عليها بلا ريب

10 Diehl et Marçais, *op. cit.*, p. 115.

الفن البيزنطي. . . إنه فن رسمي ينحو في الأساس نحو تمجيد الله والامبراطور وهو فن شرقي تتحد فيه الهللينية والشرق الآسيوي القديم في خدمة المسيحية»[11].

د ـ كنيسة القديسة صوفيا

إن القرن السادس وهو عهد «يوستينيانوس» تميز بخاصة، كما نعلم، برائعتين إثنتين يعود الفضل فيهما إلى مبادرة هذا الأمبراطور وهما: كنيسة القديسة صوفيا الكبرى وشرعة يوستينيانوس.

«إن هذه الكاتدرائية الكبرى تبهر أولاً كل من يراها نظراً لجرأة هذه القبة الضخمة وخفتها التي تبدو غير مستندة على البنيان بل معلقة في السماء بسلسلة ذهبية». . . والقبة هذه يمكن إعتبارها من الميزات الخاصة بالفن المعماري البيزنطي. . . «عندما يدخل المرء للصلاة فيها، يضيف بركوب متحدثاً عن كنيسة القديسة صوفيا، ينظر إليها وكأنها بالحري عمل من أعمال حكمة الله أكثر مما هي من صنع يد البشر»[12]. ويضيف ديهل: «واليوم وبعد مضي أربعة عشر قرناً على بنائها لا تزال كنيسة القديسة صوفيا تبدو احدى أعظم ابتكارات الفن المعماري وكبناء نموذجي تختصر فيه مجموعة كبيرة من الأساليب المعمارية بل هي مثل أعلى في الفن»[13].

هـ ـ شرعة يوستينيانوس

إن ما يضفي أهمية تاريخية على عمل يوستينيانوس التشريعي هي رغبته في تكييف القوانين الرومانية والوثنية القديمة والتي كانت سارية مع دولة يونانية ـ مسيحية ونظام إجتماعي جديد. «ففي قانون الاشخاص يعلن القانون أنه ومن وجهة الحق الطبيعي فكل الناس متساوون وأن كل إنسان يولد حراً. ونتيجة لذلك تحسن وضع الأرقاء وشجع على عتقهم وجعل ذلك الإجراء أيسر. وأما الزواج فيسمح به بين أحرار وأشخاص من درجة الشيوخ، وبين رجال أحرار ونساء من طبقة وضيعة فضلاً عن ممثلات أو محظيات. وأصبحت المرأة في البيت مساوية للرجل وربما تحظى بإمتيازات أكثر منه. . . فالقانون يلزم الزوج العتيد بأن يقدم لعروسه نفقة تعود

11 Diehl et Marçais, *op. cit.*, p. 119.
12 Bailly, *op. cit.*, p. 103, 104.
13 Diehl et Marçais, *op. cit.*, p. 117.

إليها في حال فسخ الزواج. وهو يعزز على العموم الضمانات التي تحمي المرأة وحتى أنه يخفف لصالحها العقوبات المفروضة على الزنا. كما أنه يعدل العلاقات بين الاب والابناء. فسلطة الآباء على أبنائهم القديمة فقدت صرامتها السابقة. . . وعلى العموم فالروح المسيحية أدخلت في كل مكان حماية الضعيف وأظهرت في كل مكان إهتماماً كبيراً بالخلقية العامة لقمع. . . كل الفساد الذي كان يعبث في القسطنطينية بشكل خاص. . .

وتظهر هذه الروحية في ما تعلق بالأملاك. . . (وبخصوص الارث) فإن تشريع يوستينيانوس وضع أسساً جديدة. فالورثة يدعون الى استحقاق الارث بناء على تصنيف درجة المشاعر المفترضة لدى المتوفى. فقد بني حق الارث على القرابة الطبيعية وبلا تمييز بين الجنسين. كما ان حق قرابة العصب (قرابة من ناحية الأب) ألغي. ولم يعد جائزاً للأب حرمان ولده من الارث. وصار بوسع الأم، وبلا قيد او شرط، ان ترث من اولادها. وصار يحق للبنات او الأخوات بالارث. . . وبهذا الحس من الرهافة والعدالة والبساطة الذي أشبع به تشريع يوستينيانوس مهد الطريق أمام التشريع الحديث. . . إن فكرة الدولة القائمة على القانون فضلاً عن نظرية الحكم الأمبراطوري المطلق لم يعبر عنهما في أي مكان آخر بشكل أوضح وأشمل مما هما عليه في تشريع يوستينيانوس. . . فمن خلال عمله التشريعي هذا إنتقلت تلك الأفكار إلى الغرب في القرون الوسطى ونشرت فيه مبادىء القانون الذي ينظم المجتمعات الحديثة»[14].

14 Diehl et Marçais, *op. cit.* p. 86, 87, 88.

II. الحضارة الفارسية ـ الساسانية

إن أمبراطورية الفرس الساسانيين، أسوة بأمبراطورية الفرس الأخمينيديين وأمبراطورية البارتيين الأرزاسيديين واللتين خلفتهما وكانت إمتداداً لهما في الإطار الجغرافي نفسه، «هي دولة عسكرية لا مجال فيها للعلم ولا للفنون».

١ ـ الملك الساساني

إن الهيكلية الإجتماعية للبلاد، كما التنظيم الإداري، تشكلان هرماً من الطبقات المنضدة فوق بعضها بعضاً، ولكنها مفصولة عن بعضها بعضاً كلياً، ويقوم على رأسها «الملك الكبير» رئيس الأمة والدولة. وبرغم أن الدين يحتل مكانة مرموقة في الدولة بيد أن الملك، وليس الإله، هو الذي يحظى بأكبر قدر من التكريم والتمجيد. فهو تجسيد لله على الأرض. فيما يأتي الإله عند اليونان ـ الرومانيين واليهود والمسيحيين في المرتبة الأولى.

إن الملك الساساني هو مركز حياة الأمبراطورية. وهو الرئيس الأعلى للأمة والسيد المطلق للدولة. إنه مطلق السلطة ومستند إلى دين خاص هو رئيسه ويجمع في يده كل السلطات «وإن سلطته الإستبدادية لا يحدّ منها سوى عزله أو قتله» (هوارت ودولابورت).

إن لباس الملك هو ذو أبهة باهرة. فتاجه الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة يشع حوله بوهج أخاذ. وهذا التاج كروي الشكل رمزاً إلى الشمس وقد أضيف إليه هلال ونجمة.

إن الملك لا يمكن مقابلته حتى أنها تتعذر على كبار أصحاب المناصب العليا في البلاط. فهو محجوب ويختبىء عن حاشيته وراء ستارة. ولا يظهر علانية إلا في مناسبات نادرة. وتعتبر جلساته الرسمية مشهداً عظيماً. الصيد هو هوايته المفضلة.

يكافىء الملك خدمه المخلصين بأشكال عديدة تارة بمنحهم ألقاباً أو وظائف في البلاط وطوراً هبات مالية أو تاجاً أو ثوب شرف ينتقيه من بين ملابسه الملكية.

وتعطينا الغنيمة التي إستولى عليها العرب يوم إحتلوا بلاط كسرى في كتيزيفون العام ٦٣٧ فكرة جلية عن الترف الذي كان سائداً في بلاط الساسانيين.

٢ ـ أصحاب المناصب العليا

ويلي الملك كبير الوزراء وهو يخضع لرقابة الملك وتناط به الإدارة المطلقة لكل شؤون الدولة. إن خلفاء بغداد العباسيين، وتحت تأثير حاشيتهم من الفرس، أعادوا في أمبراطوريتهم منصب كبير الوزراء على النمط الساساني.

وكان الأمراء التابعون وأمراء المقاطعات البعيدة يحملون لقب «ملك» ومن هنا جاء تعبير «ملك الملوك» أو «الملك الكبير» وهو إسم لا يطلق إلا على رئيس الأمبراطورية وحده. وإن غالبية أصحاب المناصب العليا في الدولة هم عادة من الأسرة الملكية ويقومون بمهامهم على أساس وراثي. وإذا صادف وكان حكام المقاطعات من الأصل الملكي فيحملون عندها لقب شاه أي ملك. وهؤلاء الحكام يتسلمون كشعار شرفي عرشاً من فضة إذ أن عرش الذهب هو ميزة تنحصر بالملك الكبير دون غيره.

٣ ـ الإدارة العامة

وإنطلاقاً من عهد كسرى الأول (٥٣١ ـ ٥٧٩) قسمت أراضي الأمبراطورية والجيش إلى أربع دوائر جغرافية كبرى يحكم كلاً منها قائد جيش. وهؤلاء القادة الأربعة هم نواب ملك حقيقيون يدير كل منهم مقاطعته وهو صاحب الأمر والنهي فيها.

إن السياسة والإدارة الداخليتين تقومان على نظام متطور من التجسس موروث عن الأخمينيديين. كما أن العديد من التقاليد الادارية تعود إلى الأشوريين والبابليين.

وتكمن قوة الجيش، كما في أيام الأرزاسيديين، في الخيالة المدرعة بالزرد. فيما يمارس رجال الاكليروس الوظائف القضائية ويأتي الملك في قمة هذه الوظائف لأنه القاضي الأعلى. وإن الشعب الإيراني الشغف بالقانون والعدالة كان يكنّ إحتراماً كبيراً

للقضاة الصالحين. وكانت عائدات خزينة الدولة ترد من الضرائب التي تجبى عن الأراضي.

٤ ـ الطبقات الإجتماعية

إن الطبقات الإجتماعية هي أربع: رجال الدين، المحاربون، الموظفون، المزارعون والحرفيون. ولكل من هذه الطبقات رئيس ومراقب ومدرب يعينهم الملك. والحبر الأعظم هو رئيس رجال الدين الذين يختارون من قبيلة المجوس المادية القديمة وهو الرئيس الأعلى للكنيسة المزدية والمرشد الروحي للملك. والفلاحون مرتبطون بالأرض التي يعملون فيها. وهم مجبرون بالعمل سخرةً. إلا أن وضع السكان في المدن فأفضل حالاً.

إن العرب الذين خلفوا الأمبراطورية الفارسية بعدما واكبهم الحظ في خلعها أخذوا بنظام حكم الساسانيين على أنه أكمل نظام فبدا لهم نموذجاً لفن الحكم وسعوا إلى تقليد تنظيمه وأساليبه.

٥ ـ الحياة الإقتصادية والإجتماعية

كانت الزراعة ما تزال أساس البنية الإقتصادية في الأمبراطورية الفارسية. لكن الموقع الجغرافي للبرزخ الإيراني ودوره كطريق عبور بين آسيا الداخلية والعالم المتوسطي والإيجي سيمد التجارة والصناعة بزخم أكبر. فصناعة الأنسجة وتجارة الحرير المستورد من الهند، فضلاً عن المواد المستقدمة من سورية ومصر وآسيا الصغرى، كانتا مزدهرتين جداً.

«وفي ميدان التبادلات التجارية كانت العملة الساسانية الفضية أو النحاسية، ونادراً الذهبية، متداولة على مدى واسع. وقد شهد ذلك العصر ظهور الكمبيالة الحقيقية وقد أبدى العالم المصرفي اليهودي في بابل ناهيك بالمؤسسات الفارسية المشابهة تأثيراً راجحاً في طرح الكمبيالة قيد التداول... فيما إقتبس التجار المسيحيون السوريون إستعمال الكمبيالة عن إيران ونقلوها إلى الغرب حيث راجت خصوصاً بدءاً من عهد الملوك المروفنجيين الفرنك. وفي المدن إنتشر تداول العملة... غير أنه في الأرياف كان الفلاحون والجنود والموظفون يُدفع لهم عيناً وحتى الضرائب

كانت تجبى عيناً وهو تقليد بقي دارجاً في بعض البلدان حتى العصر الحديث. لكن التجارة الخارجية كانت تنتمي كلياً إلى الإقتصاد المبني على النظام النقدي»[1].

وكانت التجارة تخضع لمراقبة شديدة من قبل الدولة التي خصت نفسها بإحتكارات عديدة كإحتكار تجارة الحرير الخام أو الطبيعي المستورد من الصين، حتى أن الدولة بسطت أيضاً سلطاتها على بعض الصناعات الخاصة وعلى الصناعات التي تهم مباشرة البلاط أو الجيش أو الإدارة.

وفي الميدان الزراعي فالفلاح كان رقيقاً. فالملكية الأرضية الكبيرة والتي يحتكرها أمراء إقطاعيون حقيقيون تحولت إلى مؤسسة مغلقة تمتلك منتجيها الخاصين وحيث أن الفلاح المسحوق هو ملك السيد الإقطاعي... وقد برز ذلك النظام الإقطاعي الذي يستأثر به الأقطاب الزراعيون في ذلك العصر وإنتشر في آسيا الغربية وفي أوروبا وإمتد إلى المدن حيث بقي قروناً عديدة.

«وعلى أسس الارث القديم فإن إيران وكذلك روما، توصلا إلى نوع من الإقطاعية أكثر إنتاجاً من إقطاعية العصور السابقة. وعاد الفلاحون الذين كانوا منذ عهد قريب أحراراً إلى حالة الرق وذلك نتيجة ثورة إقطاعية. وهذه الثورة هي في أساس الاقطاعية العربية والسلافية ـ الروسية والمتوسطية في القرون الوسطى التي حافظت على الزراعة في العالم القديم في سبيل تأمين تطوره»[2].

٦ ـ الدين

إن آسيانيي إيران الذين أصبحوا آريين من حيث لغتهم منذ أكثر من ألف عام، وقد اندمجوا بالهندو ـ آريين الذين دخلوا البلاد كمهاجرين، ينتمون إلى العرق الآسياني أو الألبي، وإن فرعاً منهم هو فرع السومريين إستعمر في الألف الرابع بلاد ما بين النهرين السفلى وأنشأ فيها إلى جانب حضارة مبكرة الأنظمة الدينية الأولى.
فإيران أضافت إلى أديانها الأولية عقائد دينية أخرى خلال العصور سواء منها المستوردة أو المحلية: كالمزدية والزرادشتية والميترائية والمانيشية والمزدكية وقد إستوحت عدة أديان أجنبية منها وإنتشرت خارج حدود إيران بالغة الشرق الأقصى وآسيا الغربية وأفريقيا وأوروبا. وقد تحدثنا آنفاً عن جميع تلك الأديان في عصر ظهورها

1 Ghirshman, *op. cit.*, p. 310, 311.
2 Ghirshman. *op. cit.*, p. 314.

على التوالي. وفي عداد الأديان المستوردة إلى إيران كانت المسيحية في الغرب والبوذية في الأجزاء الشرقية من الأمبراطورية.

إن فارس وقد زالت من الوجود كدولة بعد الفتح الإسلامي «فقدت في الوقت نفسه دينها القومي (الزرادشتية) والذي لفرط ما ووجه به من تبشير بأديان أخرى غيره إنتهى إلى الزوال تماماً تقريباً. وأما اليوم، كما نعلم، فلم يبق منه إلا بعض المجموعات القليلة من الأتباع في ضواحي طهران ويزد فضلاً عن الجالية التي ذهبت إلى الهند للإستقرار فيها تحديداً في منطقة بومباي وقد ظلت تزدهر فيها حتى يومنا هذا»[3]. إن هؤلاء يسمون اليوم بالبارسي نسبة إلى بلدهم الأصلي بارسا أو فارس.

وبعدما صارت الأمة الإيرانية مسلمة بعد الفتح العربي الإسلامي لم تلبث أن إعتمدت بدعة إسلامية هي الشيعية «وهي أكثر تطابقاً مع تطلعاتها القومية». والإيرانيون ما زالوا اليوم من أنصار علي وخلفائه.

٧ ـ الفن الساساني

«إن الفن الساساني الذي هو آخر مرحلة من مراحل الفن الشرقي القديم والذي عمره أربعة الآف سنة تقريباً هو شميلة الفن الإيراني الذي كان عمره يومها أكثر من ألف سنة وقد بقي مفتوحاً في وجه التيارات الخارجية التي كان يعتمدها ويحولها بحسب تقاليد الأرض التي تغذيها... وهذا الفن في تجلياته الأكثر قدماً هو خلف مباشر لآخر مرحلة من الفن البارتي الذي كان إيرانياً أصلاً»[4]

ومن جهة أخرى فإن الفن الساساني، وهو نهاية تطور طويل يعود إلى الأشوريين، أرسى «الإتصال بين فنين مختلفين ظاهرياً بمثل إختلاف الفن الأشوري ـ الاخمينيدي والفن الإسلامي... وفي الواقع لا يسعنا فهم الفنون الإسلامية إلا إذا أدركنا الدور الهائل الذي لعبه الفن الساساني في آسيا بميله المزدوج نحو التمثيل الطبيعي للأشكال الحية وبخاصة الأشكال الحيوانية من جهة ونحو النمنمة الزخرفية والتجريد الهندسي من جهة أخرى»[5].

3 Huart et Delaporte, *op.cit.*, p. 359.
4 Ghirshman, *op. cit.*, p. 287.
5 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 120, 142.

٨ ـ الحياة الفكرية

ومن المعروف أنه وفي عهد حكم الملوك الساسانيين الأولين أنجزت الصياغة الأخيرة والكاملة لكتاب الأفستا الذي يعتبر توراة الزرادشتية التي اصبحت بعد قليل الدين الرسمي للدولة. وإن بعض أجزاء هذا المؤلف، الذي يعتبر على أنه «مصدر كل علم»، تحتوي على فقرات تعالج موضوع الطب. وقد أدخلت فيه بعض تعاليم ابوقراط بعدما عدلتها لتتوافق مع عقيدة الدين الزرادشتي.

إن الأفستا وتعليقاته فضلاً عن الأدب الايراني في العهد الساساني، أوحيا في القرن العاشر من عهدنا معظم كتاب الشاهنامة او «كتاب قصص الملوك» وهو ملحمة رائعة تضم ٦٠,٠٠٠ بيت شعري تقريباً وقد ألّفها الفردوسي نابغة الشعر الايراني.

إن ترجمة الأعمال الأدبية اليونانية والهندية بدأت في أيام الملك شهبور الأول (٣٠٩ ـ ٣٧٩) بيد أن أيام حكم الملك كسرى الأول (٥٣١ ـ ٥٧٩) هي مرحلة النهضة الايرانية.

«إن «عصر» الملك كسرى الذي كان متصفاً بتسامح ديني كبير يتباين مع تعصب الكنيسة البيزنطية المسيحية. فقد جذب إلى ايران العديد من الفلاسفة اليونانيين المضطهدين في اليونان ورحب بهم في بلاط كتيزيفون. إن الأفكار الغربية التي دخلت في ذلك العصر الى إيران امتزجت بالأفكار القادمة من الهند»[6]. وفي ذلك العصر أيضاً فإن كتاب كليلة ودمنة الهندي وهو مجموعة حكايات مشهورة على لسان الحيوانات جيء به من الهند وترجم من اللغة السنسكريتية الى اللغة البهلوية (حوالي العام ٥٧٠).

6 Ghirshman, *op. cit.*, p. 309.

III. خاتمة

١ ـ البيزنطيون والفرس عشية الفتح الاسلامي (حوالي ٦٣٠)

إذا كان الفتح العربي العام ٦٣٣ قد هزم بيزنطية وكتيزيفون بهذه السرعة فليس ذلك عائداً الى ضعف تينك الامبراطوريتين وحده في ذلك العصر، بل لإهمالهما المزدوج أيضاً. فهاتان الامبراطوريتان القديمتان المتنافستان اللتان كانتا القوتين الكبريين الوحيدتين في عصرهما تعودتا على ألا تحملا محمل الجد أية قوات عسكرية غير قواتهما. كما أنهما استسلمتا لنوع من الحياة الخاملة إثر إنهاكهما المزدوج في الحروب التي انتهت العام ٦٢٨.

فبيزنطية وكتيزيفون اللتان استخفتا بقوة بدو الصحراء العربية كانتا أبعد من أن تخشيا أي غزو جدي يأتي من جانبهم، معتبرتين غاراتهم على أنها أعمال لصوصية لا تحتاج الى اكثر من عملية قمع بوليسية. ومن أجل هذه المهمة كان البيزنطيون والفرس أغلب الأحيان يستعينون بأمراء تابعين لهم ومختارين من بين العرب أنفسهم ليردوا غزوات اخوانهم في العرق.

ولو وعى البيزنطيون والفرس تماماً ما كان يجري جنوب أمبراطوريتيهما من تطورات، لكانوا حتماً أدركوا ان امبراطورية سياسية ـ دينية قوية وحدت لتوها شبه الجزيرة العربية، وأن همة حربية تنزع الى التوسع الخارجي كانت تدفع بتلك الدولة الاسلامية الفتية للانطلاق قدماً نحو الشمال. ولكانوا عندئذ وحدوا جهودهم ووسائلهم لقطع دابر هذا الخطر الخارجي الداهم ولكانوا اتحدوا حتماً كما فعلوا في عهد الملك شهبور الثالث (٣٨٣ ـ ٣٩٠) لمواجهة الهون والهفتاليت في شمال فارس وذلك عندما اقتسموا معاً تكاليف تحصين ممرات القفقاس، التي كان البرابرة يحاولون التسرب منها. فلو اتخذت تدابير مشابهة بين الامبراطوريتين في الصحراء السورية ـ المابينهرية، لكان هذا على الأرجح قد أعاق تقدم القوى الاسلامية العسكرية الناشئة

وهي قوى ضعيفة نسبياً اذا ما قوبلت بالامكانات الهائلة التي يتمتع بها جبارا الشمال ولكانت الموجة العربية قد تحطمت على وجه الاحتمال عند أول انطلاقتها وربما تغير بالتالي مجرى التاريخ.

٢ ـ إستمرار الدولة البيزنطية وزوال الدولة الايرانية

إن حصيلة الهجمة العربية ـ الاسلامية الأولى هي تقليص الامبراطورية البيزنطية جغرافياً ومحو الامبراطورية الفارسية من الخارطة.

وإنطلاقاً من منتصف القرن السابع، تغيرت خارطة الشرق الأدنى السياسية والعرقية ـ اللغوية والاقتصادية والدينية تغيراً جذرياً. وقد حل العرب محل ايران في دورها التاريخي كمدافع عن العالم الشرقي في وجه مطامع الغرب التسلطية.

إن امبراطورية الخلفاء الجديدة، التي هزمت الغرب اليوناني ـ الروماني، وثأرت للشرق المتوسطي وحررته والتي عرّبت وأسلمت الهلال الخصيب وايران ومصر، حلت محل الامبراطورية الساسانية واستمرت في السياسة التقليدية التي انتهجها اسلافها القاريون: وهي سياسة امتداد الشرق القاري نحو البحار الغربية.

والامبراطورية البيزنطية بدورها، وقد اصبحت امبراطورية اقليمية، ستستمر وتتابع ازدهارها بعد هزيمتها وتحولها الجغرافي والعرقي. وسوف تمضي في تطورها. وقد تقلص حجمها لكنه اصبح أكثر تجانساً ومؤهلاً اكثر للاستمرار والنضال، وسوف تتابع، ارتفاعاً وهبوطاً، دورها السرمدي كمدافعة عن الحضارة البحرية والغربية حتى منتصف القرن الخامس عشر.

إن هذا المصير المختلف، الذي لاقته ايران وبيزنطية الامبراطوريتان القديمتان مع أنهما نكبتا بالكارثة نفسها، يعود الى تلك السُنّة العليا التاريخية والبيولوجية التي تحتم بأن يكون للدول والامبراطوريات، كما الأفراد، ديمومة معينة وطرق مختلفة للزوال. فبعضها على غرار رجل حصده الموت باكراً تكون نهايتها مفاجئة وتقضي بحادث عنف. والبعض الأخر يستبد بها مرض عضال ينهك الجسم الاجتماعي فتعيش حياة أشبه بالاحتضار وتنهار عند أول صدمة.

وفي الحالة التي نحن في صددها فإن هذا الاختلاف في قدر كل من هاتين الأمبراطوريتين، الايرانية والبيزنطية، انما يعود بخاصة الى اختلاف طبائع كل منهما الأساسية. فإيران وهي قوة قارية قد غمرتها موجة قارية عربية ستتبعها وتغطيها بعد

بضعة قرون موجة قارية آسيوية هي موجة الاتراك السلاجقة التي سوف تتدفق في القرن العاشر من هضاب آسيا الوسطى. وفي المقابل فإن بيزنطية، سيدة البحر، نجحت في وقف هذا الغزو القاري عند منتصف الطريق. وبرغم ضعفها النسبي، سوف تصد بنجاح طوال قرون عديدة هجمات العرب ثم الاتراك السلاجقة ولن تسقط الا بعد ان خارت قواها تحت الضربات المتكررة التي شنها أتراك آسيا الصغرى العثمانيون الذين هاجموها من البحر والبر (١٤٥٣).

٣ ـ استمرار الأمة الايرانية

وفي حين زالت الامبراطورية الفارسية حوالي العام ٦٤٠، إلا أن الأمة الايرانية ستظل حية تحت النير الجديد. وهناك سُنّة عليا أخرى تقضي عامة بأنه عندما تزول دولة ما، فإن الامة التي كوّنتها تستمر خلال فترة اختلال النظام او تحت النير الاجنبي، محتفظة بروحها وخصائصها الأساسية سليمة وهي من حيث المبدأ خصائص او صفات دائمة، في حين وفي كثير من الاحيان، فإن الطبائع الثانوية، والتي هي متغيرة في جوهرها كاللغة والدين والثقافة، تتغير أو تتعدّل.

وهكذا فإن ايران التي اندثرت كدولة مستقلة بعد الفتح العربي واعتنقت الاسلام وقبلت اللغة العربية ستستمر كأمة محافظة على روحها وعقليتها الخاصتين. ثم لن تلبث ان تستعيد من ثم ذاتيتها التاريخية وبعد ذلك بقليل شخصيتها العالمية. وهذا السبات القسري سبق ان عرفته إيران إثر فتح الاسكندر الأكبر المقدوني. إن إيران القديمة التي حولت الى اهللينية وتحولت الى مقاطعات يونانية ـ مقدونية ما لبثت ان استعادت شخصيتها الايرانية ثم استردت مع استقلالها دورها كقوة عظمى بعد وصول سلالة البارتيين الأرزاسيديين الايرانية الى العرش حوالي العام ٢٥٠ ق.م.

وتحت السيادة العربية، فإن ضعف الايرانيين المعنوي والسياسي، والذي تفاقم نتيجة الديموقراطية التي أدخلها الاسلام، لم يحل دون الاحتفاظ بالتقاليد التي استمرت وظهرت في بلاط الخلفاء وساعدت عند الانحطاط الذي أصاب هؤلاء الخلفاء في إحياء الروح الايرانية من جديد تحت حكم الخلفاء العباسيين...

إن الشعب الذي عرف كيف يجد القوة حيال كل تلك الغزوات الأغرب عهداً من تركية او مغولية او عربية، ليس فقط للاستمرار بل ولتحويل تلك العناصر

الخارجية الى الايرانية، هذا الشعب اثبت خلال تاريخه الطويل حيوية خارقة. إن يقظته الحديثة العهد التي يرجع تاريخها بالكاد الى ربع قرن تظهر تحت شعار نهضة قومية قوية تبدو حَرِية بأن تعيد اليه مركزه القديم في أسرة شعوب آسيا الأمامية»[1].

وهكذا فإن روح ايران وفكرها أي طبائعها الأصلية والدائمة تغلبت على كل الاضطرابات السياسية والاجتماعية. وإن الكسوفات المتفاوتة زمنياً والتي كثيراً ما شهدها هذا البلد كانت عابرة اصلاً كما أن التغييرات التي طرأت عليه كانت سطحية لا تؤثر عامة إلا على طبائع العرق الثانوية.

واليوم «ففارس ما تزال نابضة بعد مضي خمسة وعشرين قرناً على وجودها. إنه تاريخ رائع وطويل. أنا اعرف جيداً ان دخول الاسلام اليها قد غيّر من عادات سكانها وقواعد سلوكهم وأسس تشريعهم، ولكن مراقبين متعمقين من أمثال الكونت دو جوبينو يؤكدون لنا بأن تلك التغييرات هي سطحية ولم تبدل أبداً من روحية الايرانيين القدامى التي ما تزال حتى اليوم حية في فرس أيامنا الحاضرة. وهؤلاء الفرس، الذين كان لهم في أوائل القرون الوسطى تأثير بالغ على تطور الدين الاسلامي، اعتمدوا بدعة اكثر توافقاً مع تطلعاتهم القومية. إنهم شيعيون من انصار علي وخلفائه»[2].

إن مصر ومختلف بلدان الهلال الخصيب، وحتى مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية وعلى مثال ايران، ستستعيد تدريجاً مع انتشار الاسلام ذاتيتها وشخصيتها القائمة في معظمها على مذاهب دينية خاصة: كالسنية والشيعية والمسيحية والملل المتفرعة عنها.

٤ ـ ثوابت تاريخية

لقد رأينا في مجلدينا (الأول والثاني) السابقين اللذين يعرضان التطور التاريخي لدى شعوب الشرق الأدنى منذ الأصول التاريخية وحتى العهد المسيحي ولاحظنا وجود سُنّتين كبيرتين او ثابتتين تاريخيتين تحتمهما عوامل جغرافية ثابتة نسبياً وبالتالي تعمل باستمرار في اطار عالم الشرق الأدنى.

فالثابتة الأولى هي التنافس الذي كان يجبه دوماً بلاد ما بين النهرين بمصر او

1 Ghirshman, *op. cit.*, P. 326.

2 Huart et Delaporte, *op. cit.*, p. 464.

حكام هذين البلدين لامتلاك الممر السوري ـ الفلسطيني الذي يصل بينهما. ومع الثابتة الثانية رأينا كذلك استمرار العداوة التي كانت تشعل المعارك تباعاً بين بلدان الشرق القارية (ميتان، الحثيون، أشور، بابل ـ كلدة، مادي، بلاد فارس الاخمينيدية) من جهة وبلدان الغرب البحرية (مصر، فينيقيا، كريت، أخائية، ليديا، اليونان) من جهة أخرى لامتلاك البرزخ السوري ـ المابينهري الذي يصل البحر المتوسط بالخليج العربي وايران.

وفي المجلد الثالث الحالي والذي يعرض استمرار التطور التاريخي لشعوب الشرق الأدنى منذ الفتح الروماني وحتى الفتح العربي (٦٤ق.م. ـ ٦٤٠ب.م.) لاحظنا من جديد التأثير الدائم للثابتتين المذكورتين آنفاً في التنافس المزمن والصراعات المتتالية التي جبهت باستمرار: الامبراطورية الرومانية مع خليفتها الامبراطورية البيزنطية وهما قوتان غربيتان وبحريتان كانتا تسيطران على مصر وسورية من جهة وامبراطورية البارتيين الارزاسبديين الايرانية وخلفائهم الفرس الساسانيين وهما قوتان شرقيتان وقاريتان كانتا تسودان على بلاد ما بين النهرين.

وسنرى لاحقاً خلال القرون التي اعقبت توسع الاسلام وانتشاره التأثير الدائم لهاتين الثابتتين نفسيهما في التنافس والصراعات التي ستجبه على التوالي الامبراطوريات القارية التي أنشأها العرب والاتراك السلاجقة والمماليك والاتراك العثمانيون من جهة وامبراطورية بيزنطية البحرية ودول اوروبا الغربية من جهة اخرى.

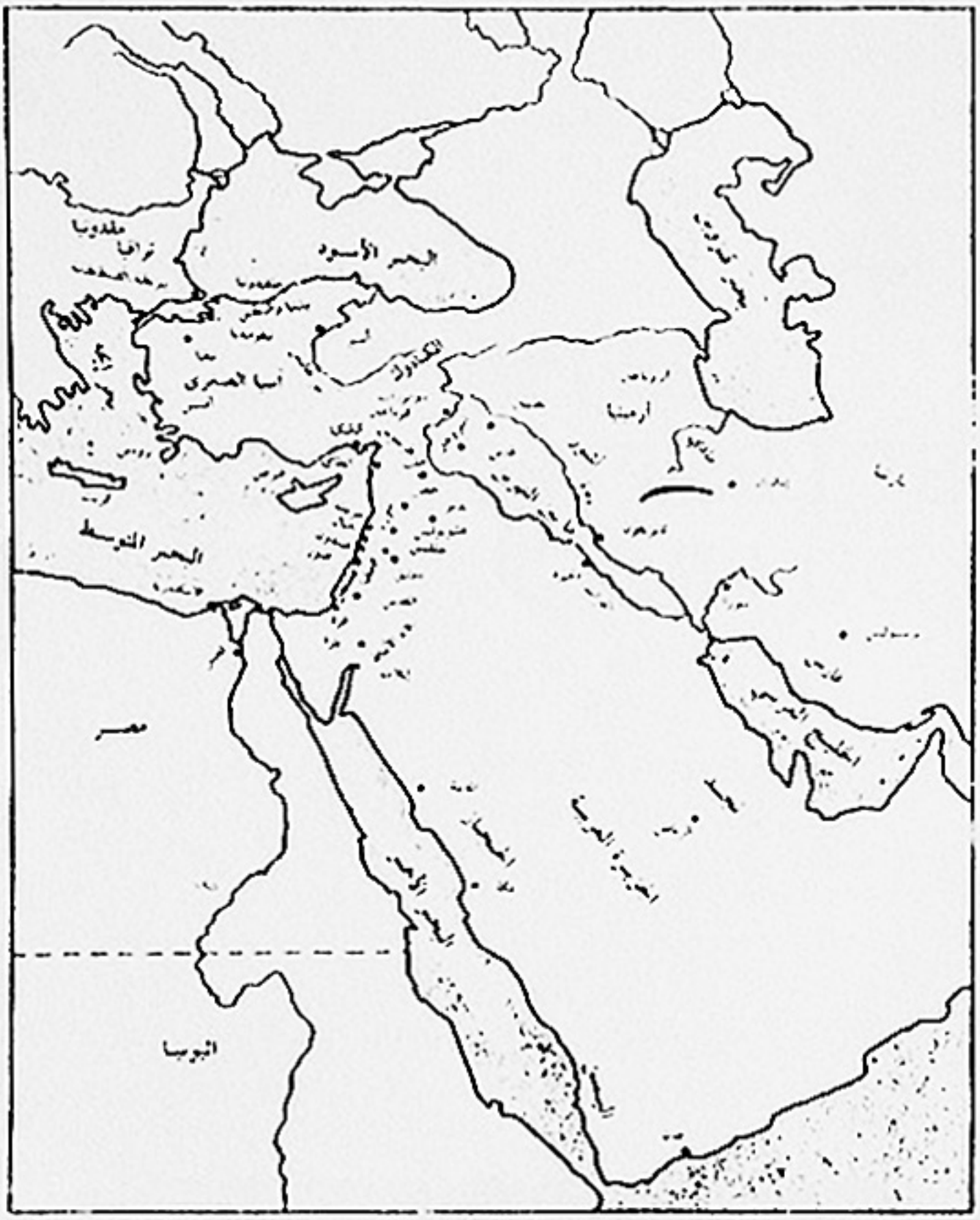

خارطة الشرق الادنى الروماني والبيزنطي (٦٤ق م - ١٤٠٠ م)